**المحاضرة الأولى: مدخل إلى الأدب الشعبي الجزائري**

**1- مدخل حول دراسة المستعمر للثقافة الشعبية الجزائرية**

بدأ الاهتمام بالثقافة الشعبية الجزائرية في العصر الحديث من قبل الاستعمار الفرنسي في الربع الثاني من القرن التاسع عشر الذي كان بحاجة إلى معرفة المجتمع معرفة تخدم إستراتيجيته العسكرية.

من هنا بدأت تظهر الدراسات التي تتناول الحياة الشعبية، وكان يقوم بها العسكريون، ولعل من بين الأبحاث التي نشرت في السنة الأولى من تاريخ الاحتلال نجد ما كتبه ضابط الشرطة الفريق (دوبنيوسك D’aubignox) في مجلة باريس (Revu de Paris) تحت عنوان "مدينة الجزائر" قدم فيها تفاصيل عن أساليب حياة الحضر في الجزائر.

وقد سجل عدد من الضباط ملاحظاتهم على شكل مذكرات مرفقة بذكرياتهم عن الغزو العسكري، مثل ما فعل (ب. كريستيان ( B. Christianفي كتابه "جزائر الشباب"، كما نجد مذكرات (وولف Woolf ( المسؤول العسكري عن احتلال مدينة قسنطينة.

كانوا يعتمدون على الثقافة الشعبية لفهم طبيعة المجتمع الجزائري حتى يسيطرون عليهم.

بعد السيطرة عليهم أنشأوا هيئات علمية، فظهرت "الجمعية التاريخية الجزائرية" التي أصدرت المجلة الإفريقية Revue Africaine قامت بنشر أبحاثا حول الحياة الشعبية الجزائرية.

وقد أسس مركز البحث الأنتروبولوجي لما قبل التاريخ والإثنولوجيا في منتصف الخمسينات من القرن العشرين ( الجمعية الأنتروبولوجية – الأركيولوجية لعصور ما قبل التاريخ)، وهي المجلة الوحيدة التي ظلت تنشط في هذا المجال بعد استقلال الجزائر.

وقد حظيت الطرق الدينية والممارسات الشعائرية للجماعات الصوفية بالنصيب الأوفر من الاهتمام منذ بداية الاحتلال نظرا لانتشارها بكثرة خاصة في القرن 19 وبداية القرن 20 وتأثيرها القوي في مختلف الأوساط الشعبية، مثل ما نجده عند الكولونيل (ك. تروميليه C. Trumulet ) حيث كتب كتابين عن الأولياء الصالحين وأضرحتهم ومعتقداتهم.

وقد سعى المستعمر إلى خلق كيان بربري منفصل عن الشعب الجزائري، من خلال تبيان الاختلافات الموجودة بين العربي والبربري، وهذا ما نجده في كتاب (م. جوماس M. Dumas ) و (م. فابار M. Fabar) يقولان " العربي يحيط نفسه بالتمائم يعلقها في أعناق خيله وكلابه ليحميها من العين ومن الأمراض ومن الموت... يرى في كل شيء آثار السحر. القبائلي لا يعتقد أبدا في عين الحسود، واعتقاده قليل في الأحجية... العرب مضيافون لكن ضيافتهم للمداراة والتباهي أكثر منها نابعة من القلب. عند القبائل متواضعة، نخمن على الأقل من مظهرها أن وراءها عاطفة نبيلة"

**2- الأدب الشعبي الجزائري وحظه من البحث العلمي الاستعماري**

حظي الأدب الشعبي الجزائري في العهد الاستعماري باهتمام ضئيل مقارنة بجوانب الحياة الشعبية الأخرى، والجانب الذي حظي بالاهتمام هو الثقافة المادية، وقد أهملوا الطبيعة الفنية لهذا الأدب.

كانت هذه الكتابات موجهة بالدرجة الأولى إلى:

* القارئ الموظف بالإدارة الفرنسية في الجزائر
* القارئ المواطن الأوروبي في الجزائر بالدرجة الثانية
* القارئ الفرنسي العادي بأوروبا

لم تكن عملية جمع النصوص علمية، بل كانت خاضعة لعوامل الصدفة والارتجال، وقد كانت الثقة مفقودة بين الجامع والراوي، وهذا ما اعترف به الكولونيل (ك. ترميليه) يقول: "ليس سهلا أبدا أن تجعل من الأهالي الجزائريين يتكلم... تبقى شفتاه مضمومتين بإحكام عند كل سؤال يمس موضوعا دينيا عندما يكون مخاطبه ليس مسلما... إلا أنه يجب أن تؤخذ الكلمات منه عنوة.

ولعل من بين الأعمال الأدبية الشعبية لجزائرية التي أنجزت في هذه الفترة، نجد (رونيه باسيط Rene Basset ( الذي كتب عن "بنت الخص" و"المغازي"، كما نجد كذلك (جان دسبرميه Jean Desparmet) الذي كتب عن المغازي... ولكنها دراسات تدور في محور ضيق، عجزت عن ملاحقة التطورات التي عرفتها دراسات الأدب الشعبي...

وبعد انتهاء فترة الاحتلال ظهرت أقلام فرنسية ، حاولت أن تكون أكثر علمية، مثل دراسات (بيار بورديو Pierre Bourdieu) و(كامي لاكوست دي جاردان Camille Lacoste Dujardin).

**3- المؤسسة الثقافية الوطنية والأدب الشعبي.**

في مقابل وجهة نظر الاستعمار نجد نظرة المثقفين الوطنيين الجزائريين الذين ظهروا في مستهل ق19، من بينهم نجد "عبد الرزاق بن حمادوش" الذي اهتم بالتقاليد الشعبية في مجال الطب الشعبين، وقام بنشرها في كتابه "كشف الرموز" .

ثم ظهرت في نهاية القرن 19 والنصف الأول من القرن 20 جهود بعض المثقفين الجزائريين الذين تكونوا في مدرسة المعلمين ببوزريعة بالعاصمة من بينهم "عمار بوليفة" الذي درس اللهجات البربرية وآدابها، كما نجد "محمد بن شنب" الذي تخصص في التراث العربي الإسلامي، واهتم بالأمثال الشعبية.

هكذا جمع هؤلاء الرواد الباحثون جزءا من مواد الثقافة الشعبية المتداولة في عهدهم، وقد فهمومها أكثر من زملائهم وأساتذتهم الفرنسيين، إلا أنهم من الناحية المنهجية لم نعثر عندهم على تطبيقات نفسية أو أنتروبولوجية أو مورفولوجية...

**5- المؤسسة الثقافية الرسمية الوطنية في فترة ما بعد الاستقلال**

عرفت مؤسسات الدولة الجزائرية في مستهل مرحلة الاستقلال الوطني هيمنة توجهين ثقافيين أساسيين هما:

1. الحركة الإصلاحية الدينية

ب-التوجه الثقافي والتقني المفرنس

لكن لم يهتم هاذين الاتجاهين بمواد الثقافة الشعبية خلال الستينيات، وكانت الهيئة العلمية الوحيدة التي اهتمت بذلك، هي هيئة "مركز الأبحاث الأنتروبولوجية في عصور ما قبل التاريخ والإثنولوجية" التي تأسست سنة 1953.

ثم اهتمت قنوات الإذاعة الوطنية بالاهتمام بالموروث الشعبي الشفوي مثل الشعر الملحون، والأمثال الشعبية، والأغاني، والبوقالات.

وفي سنة 1969 صدرت مجلة "آمال" عن وزارة الثقافة عددا خاصا بالشعر الملحون سنة 1969.

أما في الجامعة الجزائرية فقد ظلت بعض مواد الإثنولوجية مبرمجة في قسم علم الاجتماع إلى غاية بداية السبعينيات.

وفي مرحلة السبعينيات تم إصلاح برامج التعليم بما يتناسب استراتيجيات الدولةـ فأعيد النظر في تسمية المؤسسات العلمية، والفروع العلمية، والتخصصات... فاستحدثت مادة الأدب الشعبي، تدرس لطلبة اللغة العربية وآدابها...

وفي مرحلة الثمانينيات عرفت المؤسسات الرسمية للدولة ضعفا وعجزا كبيرين، وهذا أدى إلى تجميد البحث العلمي وتقليص العمل الثقافي الذي تشرف على انجازه الهيئات الرسمية، وفي المقابل ظهر نشاط المعارضة السرية الذي اتجه نحو استخدام المطلب الثقافي كركيزة اعتمدها في سعيه إلى محاربة النظام السياسي القائم، وقد تجسدت هذه المعارضة في تيارين أساسيين:

التيار الأول: التيار الديني: يتمثل في الاتجاه الديني المحافظ ، سليل الحركة الإصلاحية وجمعية العلماء المسلمين.

التيار الثاني: التيار البربري: الذي يطلب التكفل الرسمي بالثقافة البربرية بلهجاتها... وكان من نتائج نشاط هذه الحركة إنشاء هيئة رسمية هي "المحافظة السامية للغة الأمازيغية" وبها تم تنشيط البحث في الثقافة الشعبية واللغة الأمازيغية.